المقدمـة

الحمد لله رب العالميـن، وأفضل الصلاة وأتم التسليـم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد:

فإن هوية كل أمة تتحدد تبعاً للتصور الذي ترتضيه لنفسها عن الطبيعة وما وراء الطبيعة، وللعلاقة التي تقيمها بين هذين المستويين، وعادة ما تتشكل المعالم الفكرية لأمة ما عبر فترات متطاولة من الزمن، ويشترك في تشكيلها ظروف متعددة؛ إذ لا تكاد توجد في تاريخ الفكر فلسفة مستقلة، نشأت بمعزل عن أي تفاعل مع المعارف والفلسفات السابقة عليها، أو تلك التي نبتت في غير بيئتها طالما وجدت عوامل للالتقاء والاطلاع بين هذه الفلسفات، مما يجعلنا نلاحظ صوراً من التشابه بين الثقافات المختلفة من حيث أصولها ونشأتها.

هـذا ويكمن وراء انتقال فكر ما من بيئتـه الأولـى إلى بيئة أخرى والتباسـه بفكر آخر أسباب متعددة، منها السياسي والمعرفي والديني، فقد يحدث تزاوج بين الثقافات نتيجة للتوسع في إقليم ما، وعادة ما تقتفي الأمةُ المغلوبة آثارَ الأمة الغالبة وتتبع مناهجها وأساليب تفكيرها بوعي أو بدون وعي، وقد تدفع عقيدة ما أتباعها لنشر معتقداتهم وأفكارهم، وقد تدفعهم للاطلاع على ما عند الآخرين والاستفادة من تجاربهم وإسهاماتهم. ومهما بلغت درجة التقارب والتداخل بين الثقافات أو الفلسفات المتعددة يبقى لكل منها هويتها المميزة وطابعها الخاص،

ومشكلاتها وإسهاماتها في مجال الفكر الإنساني.

وقد تُوَظَّف أوجه التشابه والتقارب هذه في تشويه ثقافة ما، وتُسْتَغل في محاولة طمس ثقافة أمة بأكملها، بدعوى عدم أصالتها أو عدم قدرتها على النظر والتأمل، مع الجهل أو التجاهل لموقع تلك الأمة على الخارطة الفكرية للإنسانية، وتأتي مهمة الأبحاث الجادة والدراسات الأكاديمية المعمقة لتحاول كشف اللثام عن بعض جوانب هذا التداخل أو التمازج بين ثقافة وأخرى، أو معتقد وآخر، وفق أسس موضوعية، بعيداً عن النزعات الذاتية الخاصة.

ومن المعروف أن الحضارة الإسلامية في طابعها العام حضارة نص معصوم، نشأت وترعرت في أحضان الوحي الإلهي المُشَكِّل لمختلف جوانبها الفكرية والعملية، وتكاملت من خلاله تصوراتها لما يتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة، غير أن المسلمين تعرفوا على مصادر أخرى تمتلك تصورات أخرى لما يتصل بهذين الجانبين، وأحد تلك المصادر التي وصلت إلى العالم الإسلامي في وقت مبكر هو الفلسفة اليونانية، فقد كان الجدل والحوار الذي نشأ بين المسلمين وغيرهم من الملل الأخرى، على اختلاف نحلهم من ثنوية ودهرية وأهل كتاب.

وبفضل ما أثاره الإسلام من إقبال على العلم، رغب المسلمون بالاطلاع على المزيد من علوم الأوائل، ولم يكن لهم سبيل إلى ذلك إلا من خلال الترجمة، فجلبوا ما تيسر لهم من كتب اليونان وعكفوا على ترجمتها، وكان من جملة العلوم المترجمة إلى اللسان العربي، الفلسفة اليونانية التي تضمنت نظرة فلاسفة اليونان إلى الطبيعة وما وراء الطبيعة، وكان اطلاع المسلمين على هذا الجانب من الفكر اليوناني متزامناً مع نشأة علم الكلام وتكامل مسائله ومدارسه، وشاء بعض الدارسين أن ينظر إلى هذا العلم على أنه قائم على علوم اليونان ومؤسَسٌ عليها.

ويأتي هذا البحث ليدرس مدى الأثر الذي خلّفته الفلسفة اليوناني على أحد العلوم الإسلامية وهو علم الكلام.

*** أهمية الموضوع وأسباب اختياره:**

أولاً: تبرز أهمية هذه الدراسة من كونها تجيب عن تساؤلات هامة وملحة وتكشف عن جوانب التأثر والأصالة والتطور في التراث الكلامي.

ثانياً: مناقشة الدعاوى العريضة التي أثارها المستشرقون ومَن تابعهم من رد علم الكلام في جملته إلى الفلسفة اليونانية ونفي أي خصوصية أو أصالة فيه، ملتزمة في ذلك منهجاً موضوعياً.

ثالثاً: قلة الدراسات التي تناولت هذه القضية الهامة إذا ما قورنت بالكتابات الكثيرة التي تناولت جوانب أخرى متعددة من الفكر الكلامي، كما أن معظم ما قدم في هذا المجال دراسات جزئية تعبر عن روح مقدميها، وقدمت أحكاماً أشبه ما يكون بمثابة نتائج مقطوعة الصلة بمقدماتها.

يمكنني في هذا المجال أن أشير ـ فيما اطلعت عليه ـ إلى دراستين اثنتين تلتقيان مع هذا الموضوع في بعض الجوانب.

الأولى: «الأصول الرواقية في الفلسفة الإسلامية»، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد، وهي في الأصل أطروحة ماجستير قدمت في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، عام ١٩٦٩م، بإشراف الأستاذ الدكتور علي سامي النشار. وقد صدرت مطبوعة عن دار الوفاء عام ٢٠٠٢م.

وكما هو واضح من عنوانها فإنها تتناول تأثير مدرسة واحدة من المدارس اليونانية وهي المدرسة الرواقية في الفلسفة الإسلامية بكافة مجالاتها وفروعها.

الثانية: «الصلة بين الفلسفة وعلم الكلام في الفكر الإسلامي» للدكتور عباس محمد حسن سليمان، صدرت عن دار المعرفة الجامعية عام ١٩٩٨م.

وتتناول هذه الدراسة أثر الفلسفة الإسلامية في علم الكلام المتأخر مبينة تطور علم الكلام وانتهائه إلى الفلسفة لدى نصير الدين الطوسي وابن خلدون تحديداً، وهما خارج نطاق هذه الدراسة.

*** صعوبات الدراسة:**

أولاً: كان من أبرز الصعوبات التي واجهتني خلال إعدادي لهذا البحث، هو عموم عنوان البحث فيما يتصل بالفلسفة اليونانية، فهو يتطلب تتبع أثر الفلسفة اليونانية بمختلف مدارسها، دون اقتصار على مدرسة أو شخصية بعينها، وقد تطلب ذلك القراءة في الفلسفة اليونانية بشكل عام ثم العودة إلى علم الكلام؛ لتحديد القضايا التي ظهر فيها التشابه أو التأثر.

ثانياً: عدم وضوح صورة الفلسفة اليونانية في أذهان المتكلمين وخاصة الأوائل منهم، فقد كانت الفلسفة حاضرة لديهم بشكل عام، ولذا كان من الصعوبة القول بوجود أثر واضح وتام لشخصية بعينها، أو لقضية بتمامها.

ثالثاً: صعوبة القول بالتأثر على نحو يقيني في كثير من المسائل التي ظهرت فيها صور من التشابه، فلا نملك إلا أن نقول: إن المادة الفلسفية كانت متاحة ومن المحتمل أن يكون قد اطلع المتكلم على المادة الفلسفية وأفاد منها، ويظل الأمر في كثير من الأحيان ضمن دائرة التشابه، اللهم إلا إذا كان التحليل الداخلي للنصوص يضعنا أمام أدلة وجيهة تجعلنا نحكم بالتأثر أو أن المتكلم نفسه يصرح بتحسينه لرأي فلسفي بعينه.

*** منهج البحث:**

وقد اقتضت طبيعة البحث استخدام عدة مناهج لإتمامه:

فقد استخدمت **المنهجَ الاستقرائي** للوصول إلى القضايا والأفكار المتشابهة، التي قد تكون محلاً للأثر اليوناني، واستخدمت **المنهجَ المقارن** في مقارنة الآراء الفلسفية والكلامية بعد استقرائها، **والمنهجَ التحليلي** للوقوف على مدى التشابه بين الرأي الفلسفي والرأي الكلامي من الناحية الموضوعية، **وجاء المنهجُ النقدي** متمماً للمناهج السابقة في ترجيح وجود أثر يوناني في مسألة ما من مسائل علم الكلام أو نفي وجودِهِ أو احتمالِ ذلك.

*** خطة البحث:**

وقد حاولت قدر المستطاع أن تكون خطة البحث شاملة للمسائل والقضايا التي ظهر فيها أثر للفلسفة اليونانية في علم الكلام أو ادُّعي فيها ذلك الأثر، بحيث تعطي صورة واضحة ومباشرة لهذه الدراسة.

وقد جاء هذا البحث في تمهيد وبابين وخاتمة:

وكان تمهيد البحث بعنوان: المتكلمون والفلسفة اليونانية، وتناولت فيه دراسةً لمحاور البحث؛ وعرضتُ مسالكَ الفلسفة اليونانية إلى المتكلمين، وبعضَ القضايا المنهجية بين علم الكلام والفلسفة اليونانية.

وكان الباب الأول بعنوان: دعوى الأثر اليوناني في آراء المتكلمين المتصلة بالطبيعيات، وتناولت فيه جانباً من جوانب الموضوع المراد دراسته من خلال ثلاثة فصول: اشتمل الفصل الأول: على التأثيرات اليونانية لدى المتكلمين في الجسم الطبيعي: وتناولت فيه: مذهبَ الذرّةِ، ونظريةَ الكمونِ بين فلاسفة اليونان ومتكلمي الإسلام.

واشتمل الفصل الثاني: على التأثيرات اليونانية لدى المتكلمين في لواحق الجسم الطبيعي: وتناولت فيه: التأثيرات اليونانية على المتكلمين في السببية الطبيعية، والزمانِ، والمكانِ والخلاءِ، وشيئية المعدومِ.

واشتمل الفصل الثالث: على التأثيرات اليونانية لدى المتكلمين في النفس الإنسانية:

وتناولت فيه: التأثيرات اليونانية على المتكلمين في تعريف النفس الإنسانية، وطبيعتها، والصِّلة بينها وبين البدن، ووحدتِها، وخلودِها. وقد ألحقت مبحث النفس بالطبيعيات تبعاً لما سار عليه الفلاسفة الإسلاميون وبعضُ المتكلمين.

أما الباب الثاني فقد جعلته بعنوان: دعوى الأثر اليوناني في آراء المتكلمين المتصلة بالذات الإلهية، وتناولت فيه الجانب الآخر من الموضوع المراد دراسته من خلال ثلاثة فصول:

اشتمل الفصل الأول: على التأثيرات اليونانية لدى المتكلمين في الوجود والماهية.

وتناولت فيه تعريف الوجود والماهية، وموقف فلاسفة اليونان والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من هذه القضية والأثر اليوناني عليهم في ذلك.

واشتمل الفصل الثاني: على التأثيرات اليونانية لدى المتكلمين في أدلة وجود الله تعالى:

وتناولت فيه التأثيرات اليونانية على المتكلمين في: دليل التناهي، ودليل الجواهر والأعراض. ودليل وجود الله سبحانه كعلة فاعلة للعالم، ودليل تضاد الأجسام، ودليل الفطرة.

واشتمل الفصل الثالث: على التأثيرات اليونانية لدى المتكلمين في الصفات الإلهية:

وتناولت فيه: صفات الإله لدى فلاسفة اليونان، وصفات التنزيه لدى المعتزلة وصلتها بصفات الإله لدى الاتجاه المثالي اليوناني. والمثل الأفلاطونية والصفات الإلهية. والتجسيم في الفكر الكلامي وصلته بصفات الإله لدى الاتجاه الطبيعي في الفلسفة اليونانية.

ثم جاءت خاتمة البحث متضمنة أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل عملي هذا، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

❐❐❐